# عصابة المحافظين الجدد

**جوشوا مورافتشك**

على امتداد الأشهر الأخيرة طغت عبارة «المحافظين الجدد» على الأجواء كما لم يسبق لها قط أن فعلت خلال حياتها ذات الأعوام الثلاثين. حاولوا الدخول إلى النكسيس Nexis، موقع التقارير الإخبارية الإلكتروني! حتى لو حصرتم الطلب بالتقارير المتضمنة كلمتي «العراق» و«بوش»، لأصيب البحث بالإخفاق. فعدد الأبواب يفوق طاقة البرنامج. بعد سبعة أعوام على قيام نورمان بودهورتز، مايسترو أوركسترا المحافظين الجدد، بالإعلان عن موت الحركة على صفحات هذه المجلة كومنتري، نرى المحافظين الجدد متمتعين بقدر من النفوذ أكبر من أي وقت مضى. إنهم، هم بالذات، المتهمون، وعلى نطاق واسع، بمسخ جورج دبليو. بوش وقلبه رأساً على عقب حتى أصبح متعذر التعرف عليه. فبين أيديهم صار الرئيس الذي كان وهو مرشح، يحلم بأمريكا «متواضعة» – أمريكا عازمة على اختزال القوات المنشورة في البلاد الأجنبية وعلى تجنب بناء الدول – زعيم مقاتلين أَقْدَمَ، حتى الآن، على الإطاحة بحكومتين أجنبيتين، وأصدر إنذاراً إلى دول أخرى يحذرها فيه من مصائر مشابهة.

تقول إليزابيث درو في النيويورك رفيو أوف بوكس «إن المحافظين الجدد يتحملون قسطاً كبيراً من مسؤولية توريطنا في الحرب ضد العراق». وتعلن النيوزويك أن «رؤية المحافظين الجدد أصبحت النواة الصلبة للسياسة الخارجية الأمريكية». وتستفز النيويورك تايمز المشاعر قائلة: «لقد تسللوا إلى دنيا الثقافة على جميع المستويات بدءاً بصالونات البحث الأكاديمي وانتهاء بقاعات البنتاغون». ثم تضيف أنهم «راكموا كل ما هو ضروري على الصعيد المالي والمهني لإذاعة

آرائهم عبر موجات الأثير على مسامع الجماهير، أو من خلال حفلات الكوكتيل على من هم شاغلون لأعلى المواقع الحكومية». وتبادر الناشيونال جورنال إلى كشف النقاب عن أن «أعداداً كبيرة من هذه المجابهات [مع دول أخرى] كانت واردة في أذهان المحافظين الجدد، قبل وصول جورج دبليو. بوش إلى البيت الأبيض بزمن طويل».

فيما وراء البحار، حيث السياسات المعطوفة على المحافظين الجدد أكثر خلافية بما لا يقاس مقارنة بحالها عندنا، تكون اللهجة على مستوى مناسب من الضراوة والحدة. ثمة مادة ملأت ست صفحات من أسبوعية لو نوفيل أوبزفاتور الفرنسية، أضفت على «مثقفي المحافظين الجدد -les intellectuels ne´oconserv ateurs» صفة «إيديولوجيي الإمبراطورية الأمريكية». جاءت المقالة تحت عنوان عريض لافت: «العالم بعد العراق». في إنكلترا بثت هيئة الإذاعة البريطانية، البي بي سي BBC، برنامجاً تلفزيونياً خاصاً مدته ساعة كاملة بدأ بـ: «هذه قصة أناس يريدون إدارة العالم بطريقتهم، بالطريقة الأمريكية، [و] طرد جحيم الخوف من قلب الشعب». ودعت التايمز اللندنية، بإلحاح، إلى تعاون بريطاني وثيق مع الولايات المتحدة ولو فقط من أجل كسب النفوذ اللازم «لتحجيم طموحات وأطماع محافظي الولايات المتحدة الجدد».

ممن تتألف هذه الطائفة القوية؟ داخل الإدارة، من المألوف أن يُنظر إلى نائب وزير الدفاع بول ولفوفيتز على أنه العنصر الرئيسي، جنباً إلى جنب مع أحد أعضاء مجلس الدفاع الاستشاري، ورئيسه إلى وقت قريب، هو رتشارد بيرل. حفنة من كبار موظفي بوش غالباً ما يُعدون من معتنقي عقيدة المحافظين الجدد، بمن فيهم مساعد وزير الدفاع دوغلاس فايث، مساعد وزير الخارجية جون بولتن، عضو جهاز مجلس الأمن القومي إليوت آبرامز، ومعاون نائب الرئيس لويس "سكوتر" ليبي. كثيراً ما يجري عدّ كل من معهد المشروع الأمريكي (حيث أعمل)، مجلة الويكلي ستاندارد، ومشروع وليم كرستول المعروف باسم القرن الأمريكي الجديد – وجميعها في مكاتب بالأجرة في المبنى نفسه – مركز قيادة الحركة في

واشنطن. وثمة بعد ذلك، بالطبع، هذه المجلة: كومنتري، بوتقة كتلة كبيرة من فكر المحافظين الجدد.

❖ ❖ ❖

يبقى تاريخ ظاهرة المحافظين الجدد أقل إثارة من المعنى الذي يوحي به استخدامها الراهن. صحيح أن العبارة راجت أواسط السبعينيات كوصمة أطلقها دعاة اليسار المتطرف ضد مجموعة من المثقفين تركزوا، في المقام الأول، في مجلة كومنتري وفصلية الببليك إنترست، ممن كانوا لا يزالون من هذه المجموعة من كتاب مهتمين بالسياسة الداخلية – إرفنغ كرستول، دانييل باتريك موينهان، جيمس كيو. ولسُن، ناتان غليزر – نشأت لديهم مآخذ على برامج الصفقة الجديدة أو مجتمع لندون جونسون العظيم. أما الفريق الرئيسي الثاني فقدتركز على السياسة الخارجية، وخصوصاً على تدهور مواقع أمريكا في مواجهة الاتحاد السوفييتي غداة الحرب الفيتنامية. ومن أسماء أعضاء هذا الفريق يُذكر بودهورتز، جين كيركباتريك، ويوجين دبليو. روستو EugeneW. Rostow، بين آخرين. مع أن معظم هؤلاء اعترضوا، بداية، على عنوان المحافظة الجديدة، فإنهم ما لبثوا، جميعاً تقريباً، أن أذعنوا له وتبنوه آخر المطاف.

أما اليوم فإن كثيرين ممن يعدون محافظين جدداً أصغر سناً من أن يكونوا قد شاركوا في هذه النقاشات، في حين أن آخرين، رغم استنادهم إلى ما يكفي من سني العمر، اتبعوا مساراً مغايراً للوصول إلى آرائهم السياسية. ما كان لهذا أن ينطوي على أي تأثير ذي شأن لو كانت حركة المحافظين الجدد حركة سياسية فعلية، أو لو كان ثمة اتفاق عام حول مبادئها. غير أن قليلين ممن يكتبون نقدياً عن المحافظين الجدد اليوم كانوا حريصين على تبين حقيقة تلك المبادئ. تبدو العبارة، بنظر البعض، منطوية على معنى نوع من المرادف المتحذلق لكلمات «صقر»، أو «متشدد» أو حتى «محافظ متطرف».

إلا أنها مستخدمة من قبل آخرين للدلالة على ما هو أخبث وأكثر شؤماً بما لا يقاس. ليس المحافظون الجدد، بنظرهم، سوى طائفة غريبة، مقنَّعة، تكاد أن تكون عصابة، لا غاية لها إلا توظيف سياسة الولايات المتحدة واستغلالها لأغراض خفية وبعيدة.

وهكذا فإن عدداً غير قليل من الكَتَبَة ركزوا جهودهم على فضح المنابع الخفية لعقيدة المحافظين الجدد. لقد تبين أن هؤلاء ينهلون من معين فكر شخصيتين غير محتملتين: شخصية فيلسوف العلوم السياسية الأمريكي المهاجر ليو شتراوس (1899 – 1973) من جهة، وشخصية القائد العسكري البلشفي ليون تروتسكي (1879 – 1940) من جهة ثانية. تسأل النيويورك تايمز: «من الذي يدير الدفة؟» ثم تتوصل إلى استنتاج يقول: «ليس ثمة قدر كبير من المبالغة إذا جاء الجواب على النحو التالي: إنهم ورثة ليو شتراوس الفكريون» الذين «تزخر» بهم إدارة بوش. نشرت البوسطن غلوب مقالة ذات 3000 كلمة زعمت فيها «أننا نعيش في عالم متزايد التعرض لصياغة ليو شتراوس» فيما قامت النوفيل أوبزفاتور، في زاوية جانبية لمادته الرئيسية عن المحافظين الجدد، بتقديم «معلمهم الخاص» ليو شتراوس، إلى قرائها.

لعل أمريكياً يراسل المجلة اليسارية البريطانية نيو ستيتسمان يدعى مايكل لند كان صاحب الصوت الأشد إلحاحاً على استحضار اسم تروتسكي، أو بالأحرى، «الحركة التروتسكية ذات الأكثرية اليهودية – الأمريكية»، التي «فَرَّخَتْ» حسب زعم لند «معظم مثقفي الدفاع من المحافظين الجدد». أما جيت هير Jeet Heer الذي أطنب في الكلام عن الجذور الشتراوسية للمحافظين الجدد على صفحات البوسطن غلوب، فتابع الكشف عن الارتباط بتروتسكي في الناشيونال بوست الكندية. (كان العنوان الفرعي يقول: «كانت كتابات البلاشفة مؤيدة لفكرة الحرب الاستباقية»). ثمة آخرون بدوا متفقين حول هذا الانتماء المزدوج. كتب وليم بفاف William Pfaff في الإنترناشيونال هيرالد تريبيون زاوية عن تأثير ليو شتراوس وأخرى ربطت سياسة بوش الخارجية بـ«التركة الفكرية لتروتسكية

العديد من مؤسسي حركة المحافظين الجدد». تبدو سياسة الإدارة، حسب اجتهاد بفاف «طبعة يمينية خاصة من نظرية الثورة الدائمة لدى تروتسكي».

ليس أي من خطابي النسب جديد على الصعيد الفعلي. فقبل ثماني سنوات أقدم جون جوديس John Judis على صفحات مجلة فورين أفيرز على الاستهزاء بتأييدي لفكرة «تصدير الديمقراطية» عاداً ذلك نوعاً من «التروتسكية المعكوسة». أما فيما يخص شتراوس فقد لوحظ، منذ زمن بعيد يعود إلى أيام إدارة ريغان، أن حفنة من طلاب الفلسفة السابقين كانوا قد احتلوا مواقع ذات شأن في وزارتي الخارجية والدفاع. إلا أن شرف نفخ الروح من جديد في اسم شتراوس يعود، على ما يبدو، إلى المحرض السياسي المعتوه (كاسر مزراب العين) لندون لاروش الذي راح ينهش فيه في خطاباته ونشراته قبل أشهر من الإشارات التي أتيت على ذكرها أعلاه. إن لاروش هذا الذي كف عن استخدام لقب لين ماركوس (تيمناً واعياً بلينين وماركس) حين طار من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين، والذي سبق له أن قضى مدة من الزمن في إحدى الإصلاحيات الاتحادية بتهمة السطو على مدخرات أعداد من المسنين لتمويل حركته السياسية، قد وجه إصبع الاتهام إلى شتراوس «جنباً إلى جنب مع بيرتراند راسل Bertrand Russell وإتش. جي. ولز H. G. Wells، بوصفهم مسؤولين عن جر الولايات المتحدة إلى نوع من الإعادة الكارثية «للحرب البيلوبونيزية».

❖ ❖ ❖

قد تبدو هذه المبالغة في الحرص على اقتناص الأجداد منطوية على أهمية ثانوية، غير أنها جديرة بالتوقف عندها للحظة إضافية، لأنها مميزة للطريقة التي اعتُمدت في أحدث «تحليلات» أفكار المحافظين الجدد.

من المؤكد أن مجرد ابتلاء التقارير بالعلاقة الشتراوسية – التروتسكية بحد ذاته لافت للنظر. أقدمت النيويورك تايمز على الزعم الصارخ بأن معهد المشروع الأمريكي قائم كلياً على مجموعة من الشتراوسيين، في حين أن ذرة من التدقيق

تشي بأن اثنين فقط من بين ستة وخمسين باحثاً يقران بأنهما شتراوسيان، وثالثاً يقر بأنه مدين دَيْناً فكرياً ذا شأن لشتراوس. لا أحد من هؤلاء الثلاثة يعمل في ميدان السياسة الخارجية. كذلك تحدثت التايمز عن بيرل بوصفه شتراوسياً – وهو كلام غير صحيح – مع الزعم خطأ بأنه متزوج من ابنة الاستراتيجي العسكري المرحوم ألبرت هولستتر Albert Wholstetter، الذي وَصَمتْه أيضاً زيفاً بالشتراوسية. حتى بعد تصحيح أو (مفسراً أن بيرل تتلمذ فقط على هولستتر بجامعة شيكاغو ولم يتزوج من ابنته) وتصحيح ثان (مقراً أن بيرل لم يسبق له قط أن تتلمذ على هولستتر كما لم يسبق له قط، مرة أخرى، أن تابع تعليمه بجامعة شيكاغو)، بقيت الصحيفة عاجزة عن التراجع عن توصيفاتها الخيالية لعلاقات كل من بيرل وهولستتر بشتراوس. كذلك أصرت الصحيفة على إضفاء صفة الإعجاب بشتراوس على هولستتر وهو أمر غير صحيح إلا بمعنى فضفاض جداً. ثمة أخطاء مشابهة لوثت القصص والتقارير في منشورات أخرى.

## وماذا عن تروتسكي؟

أقد في خطابه عن «الحركة التروتسكية ذات الأكثرية اليهودية – الأمريكية» أورد لِنْد أسماء سبعة شخصيات محورية من المحافظين على أنهم من تلامذة البلشفية الثوريين: ولفوفيترز، فايث، ليبي، بولتن، آبرامز، جيمس آر. وولزي، وبيرل. بدا هذا تجاوزاً للحدود بنظر باحث متخصص بدراسة الأفكار السياسية، وهو نفسه تروتسكي أصيل يدعى آلان والد Alan Wald، فسلط الضوء على حقيقة عدم وجود أي علاقة تنظيمية أو صلة إيديولوجية لأي من هؤلاء الرجال بالحركة التروتسكية.❖ ومما يثير قدراً أكبر من السخرية أن لند وصف سلسلة

❖ في رد حاد اللهجة على والد، عدّني لند تجسيداً نموذجياً لتروتسكية المحافظين الجدد، واصفاً إياي بـ (شاختماني) حتى العظم. مع أنني كنت أعرف شاختمان الذي كان عضواً في الحزب الاشتراكي عندما كنت أنا ناشطاً في فرع الحزب الشبابي في ستينيات القرن العشرين، فإنني لم أكن قط شاختمانياً فضلاً على أن شاختمان نفسه كف عن أن يكون تروتسكياً قبل نحو عقد من لقائي معه.

من الرسائل المفتوحة الموجهة إلى الرئيس التي نشرها مشروع القرن الأمريكي الجديد على أنها «تقنية تقارير مشاريع ابتدعها أسلافهم التروتسكيون». بصرف النظر عما كان يدور في رأس لند حين أطلق هذه العبارة، من شأن التروتسكيين الحقيقيين أن يكونوا أقل اهتماماً بإرسال عرائض الطلبات إلى الرئيس منهم بشنقه على أقرب عامود كهربائي.

غير أن ذلك يوصلنا إلى الأفكار الحقيقية لهذين الأبوين الروحيين لظاهرة المحافظين الجدد. يبرز شتراوس، برأي جيت هير، من أي قراءة دقيقة، ماكيافيلاً مقنَّعاً، أستاذاً مفعماً بالشك شجع أتباعه ومريديه على الاعتقاد بأن من شأن تفوقهم الفكري أن يمنحهم الحق في حكم كتل البشر العريضة عن طريق اعتماد أسلوب النفاق والازدواجية. وبالمثل فإن بفاف يقول إن «أي نخبة تدرك الحقيقة... وتحتفظ بها لنفسها. وهذا يمنحها الرؤيا، والقوة ضمناً، اللتين لا يتوفر عليهما الآخرون. من الواضح أن هذا عنصر مهم في جاذبية شتراوس بالنسبة إلى محافظي أمريكا... أما جاذبيته الحقيقية بالنسبة إلى المحافظين الجدد فهي، فيما أرى، كامنة في انطواء نخبويته على نوع من العَقْلَنة المبدئية للضرورة السياسية، كما لجملة من "الأكاذيب الضرورية" التي تقال لأولئك الذين تساهم الحقيقة في «كسر معنوياتهم».

لا يقدم أي من هير أو بفاف أي دليل يشير إلى المواقع التي يمكن للمرء أن يعثر فيها على هذه الآراء في مؤلفات شتراوس، بما يترك انطباعاً بأنهما اطلعا على ما يعرفانه عنه في كتاب خلافي من تأليف أستاذة تشغل كرسي «العدالة الاجتماعية» في إحدى الجامعات الكندية تدعى شادية دروري ترى شتراوس مفكراً عشائرياً وفاشستياً حتى العظم. مهما يكن من أمرٍ، فإن شتراوس، رغم كتابته بالفعل عن قيود مفروضة على حرية البحث، ولاسيما في كتاب المحاكمة وفن الكتابة، لم يكن يرمي إلى الدفاع عن المحاكمة والاضطهاد، بل إلى استنباط طريقة مناسبة لقراءة كتابات فلاسفة كانوا قد ألفوا أعمالهم في مجتمعات محرومة من الحرية. وبعيداً كل البعد عن داعية التسلط الموصوف من قبل هير وبفاف، كان شتراوس،

وهو لاجئ جاء من ألمانيا النازية، ديمقراطياً ملتزماً بقي عميق الإحساس بالانتماء والعرفان إزاء أمريكا، كما كان، بكلمات آلان بلوم (لعله أشهر تلاميذه) «على يقين بأن الديمقراطية الليبرالية هي البديل الوحيد اللائق والعادل المتوفر للإنسان الحديث».

يحاول هير وبفاف، كلاهما، إقحام شتراوس في قالب ماكيافيلي، غير أنهما، كليهما، يقلبان القصة رأساً على عقب. إذا كانت ثمة نقطة جوهرية واحدة في تعاليم شتراوس، بما فيها كتابه عن ماكيافيلي، فإنها متعلقة بالتمييز بين القدماء والحديثين. كان انتماؤه هو – وهو انتماء غريب ربما، ولكنه «محافظ» بالتأكيد – إلى فكر القدماء الذين كرسوا حياتهم لمعرفة الخير في تمايز نقيض عن الحديثين المهتمين «بقدر أكبر من الحصر» بأمور عملية. بهذا الفهم كان ماكيافيلي هو الذي بادر إلى إحداث القطيعة الفلسفية مع التراث الأفلاطوني – الأرسطوطاليسي، في تطور رآه شتراوس قاتلاً. غير أن إضفاء الثوب السياسي على شتراوس يبقى تصرفاً خاطئاً جملة وتفصيلاً. لم يكن الرجل من محترفي السياسة، بل كان فيلسوفاً كرس عمله طوال سني حياته على تعميق فهمنا لمفكرين سابقين ونادراً ما أقدم، إذا فعل أصلاً، على الانخراط في السياسة المعاصرة.

إذا كانت كتابات شتراوس عميقة يصعب فهمها، فإن تروتسكي، على النقيض من ذلك، سهل الفهم، أقله إذا كان المرء مطلعاً على المعادلات الأساسية للماركسية. ومع ذلك فإن أولئك الذين يستحضرونه بوصفه مصدر تأثير ظلامي آخر في عقيدة المحافظين الجدد، ليسوا أفضل اطلاعاً من أولئك الذين يستحضرون شتراوس. يشير كل من لند، بفاف، وجوديس، جميعاً، محذرين إلى نظرية تروتسكي عن الثورة الدائمة، ظانين، على ما يبدو، أن تروتسكي كان يعتزم اجتراح حركة تتولى مهمة نشر الاشتراكية من بلد إلى آخر بالطريقة العنيفة والثورية نفسها التي يفترض في المحافظين الجدد أنهم عازمون على اعتمادها في نشر نموذجهم الخاص من الديمقراطية في سائر أرجاء العالم.

غير أن نظرية الثورة الدائمة كانت عن أمور أخرى مختلفة كلياً. برأي ماركسيي أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، لا يمكن للثورة الاشتراكية أن تتحقق إلا بعد أن تكون الرأسمالية والبرجوازية قد انتصرت على النظام الإقطاعي بعدد من السنين. وفي بلدان غارقة في التخلف مثل روسيا، كان هذا يعني أن لا خيار أمام الاشتراكيين سوى دعم الرأسمالية إلى أن تنضج فتعد المسرح للثورة. من منظور السأم القاتل هذا، نجح تروتسكي في إنقاذ الحركة عبر الدعوة إلى الاستلام الفوري للسلطة أملاً في ابتداع طريقة ما، معجزة ما، توفر إمكانية جمع الثورتين البرجوازية والاشتراكية في تسلسل متصل واحد. تلك كانت الثورة الدائمة.

أما فيما يخص مصوِّبي بنادق الصيد إلى شتراوس، فليس ثمة أي علاقة واضحة على الإطلاق بين أي من تلك الأفكار وبين كل من العراق، الإرهاب، أو تعزيز الديمقراطية. أجاد الصحفي المحافظ الجديد آرنولد بايخمان Arnold Beichman حين قال بلغة ساخرة ومحكمة: «أوقفوا المطابع! ما كان تروتسكي.. ليؤيد حرب العراق». ربما كان بعد شيء من التفكير، سيقف في صف صدام.

أخيراً، إذا كانت محاولات ربط المحافظين الجدد بكل من شتراوس وتروتسكي قائمة على سوء الاطلاع وخطأ البناء، فإن حقيقة الإقدام على عمليتي الربط كلتيهما – من قبل الكاتب نفسه في بعض الحالات – أشد غرابة، وأكثر إثارة للدهشة من تلك المحاولات الخائبة. من الصعب الإتيان بزوجين من رجال الفكر يكونان أشد تبايناً وأكثر تنافراً منهما. فرسالة شتراوس كانت متمثلة بإرجاعنا إلى الخلف عن طريق التأمل الهائم وصولاً إلى الماضي شبه المفقود للتاريخ القديم الكلاسيكي. أما تروتسكي فكان عازماً على قيادة البشرية، عبر توظيف أساليب العنف، وصولاً إلى مجتمع جديد غير مسبوق. استهدف الأول إنقاذ الفلسفة من الإيديولوجيا، في حين كان الثاني داعية إيديولوجياً من قمة الرأس إلى أخمص القدم. كيف، بالتحديد، تَحْمِل المحافظة الجديدة بصمات هذين المشروعين في الوقت نفسه؟ لم يحاول أحد أن يشتبك مع هذا السؤال.

❖ ❖ ❖

ثمة، على أي حال، شيء واحد كان مشتركاً بين شتراوس وتروتسكي، وقد يمكّننا ذلك الشيء الواحد من الاقتراب أكثر من السبب الحقيقي وراء استحضار اسميهما بهذا القدر الكبير من اليُسر. كلاهما كانا يهوديين. ويتبين أن المحافظين الجدد هم أيضاً يهود بنسبة عالية – وهذا يشكل، بنظر معارضيهم، دليلاً على الدوافع الغريبة والبعيدة الكامنة وراء السياسات التي يتبنونها.

يقول لِنْد، مثلاً، «إن المحافظين الجدد يطلقون على إيديولوجيتهم الثورية اسم «الولسنية»... غير أنها في الحقيقة نظرية الثورة الدائمة لدى تروتسكي متزاوجة مع التيار الليكودي اليميني المتطرف للصهيونية». قدمت الناشيونال جورنال وجهة نظر لند مطولاً مع استحسان، وقد لاحظت أنه «ليس وحده»:

معلقون من مواقع مدهشة التباين على الطيف السياسي [يتفقون] على أن المحافظين الجدد استغلوا الهجمات على مركز التجارة العالمي والبنتاغون لطرح جدول أعمال طويل الأمد يكاد أن يكون غير ذي علاقة بإبقاء الولايات المتحدة آمنة من الإرهاب. ومن وجهة النظر هذه فإن غزو أمريكا للعراق وتهديدها لسورية لا علاقة لهما بمحاربة الإرهاب، بإزالة أسلحة الدمار الشامل، أو بتعزيز الديمقراطية. ترمي تلك التحركات، في المقام الأول، إلى تصفية شكاوى قديمة، إلى وضع منطقة غنية نفطياً بأيدي صديقة، وإمالة ميزان القوة في الشرق الأوسط لصالح إسرائيل.

**قدمت إليزابت درو وجهة نظر مشابهة، ولو بقدر أكبر من الغموض:**

لأن بعض... المحافظين الجدد يهود ومؤيدون جميعاً افتراضياً، لسياسات حزب الليكود، فقد اتهموا بأن هدف "إشاعة الديمقراطية" لديهم مدفوع برغبتهم في إحاطة إسرائيل بجيران أكثر تعاطفاً. من شأن مثل هذه النظرة أن تفسر التصريحات الباعثة على الحيرة الصادرة عن ولفوفيتز وآخرين قبل الحرب [على العراق] والقائلة بأن «الطريق إلى السلام في الشرق الأوسط تمر عبد بغداد». ولكن صحيح أيضاً أن بوش ومستشاره السياسي الرئيسي كارل روف Karl Rove تواقان،

كلاهما، لكسب أصوات اليهود في 2004 بنسبة أكبر مما فعل بوش في 2000 وللمحافظة على تأييد اليمين المسيحي المؤيد القوي أيضاً لإسرائيل.

من المؤكد أن استخدام درو لكلمة «لكن» في مطلع الجملة الأخيرة كان مصمماً لتمكينها من أن تنأى بنفسها عن تهمة أن دافع المحافظين الجدد هو خدمة مصالح إسرائيل، وإن كانت الكلمات التي تأتي بعد «لكن» لا تفيد، فيما يبدو، إلا في تأكيد التهمة. أكثر صراحة، وأشد فضائحية، كان المؤرخ اليساري المتطرف بول بوهل Paul Buhle الذي كتب في تيكون: «يكاد يبدو كما لو أن بروتوكولات [حكماء] صهيون المعادية للسامية التي حوربت بنجاح على امتداد قرن كامل قد عادت فجأة مزودة ببذرة حقيقة مصنعة» – وتلك (الحقيقة) ليست، بالطبع، إلا حقيقة أن سياسات المحافظين الجدد الصقرية المتشددة مفصلة فعلاً على مقاس فائدة إسرائيل.

لعل أكثر الجهود الدرامية المثيرة الرامية إلى تعرية المصلحة اليهودية الخفية الكامنة في عمق أفكار المحافظين الجدد هي الحلقة التلفزيونية الخاصة التي قدمتها البي. بي. سي. BBC عن «حزب الحرب» في أمريكا. بُثت الحلقة في برنامج بانوراما الذي يدعي أنه النظير البريطاني لبرنامج 60 دقيقة من قناة سي. بي. إس. CBS، وأعلن مقدم الحلقة: «الليلة: هل سيُقْدم صقور أمريكا العتاة على جرنا إلى المزيد من الحروب ضد أعدائهم؟» وسرعان ما أصبح معنى عبارة «أعدائهم» واضحاً. جرى في البداية، على أي حال، إطلاع المشاهدين على معرض صور مارقين لضيوف محافظين جدد، تم تصوير كل منهم من زاوية قريبة قرباً غير عادي مع جعل الرأس قادراً على ملء الشاشة لإحداث تأثير مرعب، مقزز للنفس. كذلك عُرضت عناوين مؤطرة ثابتة للموضوعات، مع الانتقال بغتة من الصور الملونة إلى مسودات الأبيض والأسود الواضحة دون إهمال ضرورة تمكين المرء من سماع تأثيرات صوتية مناسبة لأي دراما بوليسية مثيرة، في حين أن المذيع، المستضيف، ستيف برادشو Steve Bradshow وعدداً من الضيوف المعادين للمحافظين الجدد قُدموا، على النقيض من ذلك، في وضعيات جذابة ومحببة أكثر الأحيان.

في العرض ذاته، قُدم بيرل على أنه «العراب السياسي للمحافظين الجدد»، عبارة موحية تعزز معناها جراء سؤال طرح منفصلاً عليه وعلى ضيف آخر: «هل أنتم مافيا؟» وفيما كانت عدسة الكاميرا متركزة على المبنى الذي يؤوي معهد المشروع الأمريكي وفروعاً أخرى لـ«المافيا»، سمعنا من المذيع أن هذا هو المكان الذي يتم فيه «التخطيط [التآمري] للمستقبل».

وما الذي يجري «التخطيط» له بالتحديد؟ كان الجواب قد مُهد له من قبل حين قالت امرأة مغفلة الهوية في الشارع عن الحرب في العراق: «ثمة، على ما يبدو، ... جدول أعمال آخر ليس خافياً علينا في الحقيقة، وذلك هو ما يقلقني أكثر من أي شيء آخر». بعد عدد من الدقائق عاد برادشو إلى الموضوع نفسه قائلاً: «وقع اختيارنا على موضوع دائم التكرر في أحاديث ما وراء الكواليس بواشنطن. يهمس الناس أن بعض كبار المحافظين الجدد القياديين شديدو التأييد للصهيونية ويريدون الإطاحة بأنظمة معينة في الشرق الأوسط لمساعدة إسرائيل جنباً إلى جنب مع الولايات المتحدة». ولتسليط الضوء على «القضية بالغة الحساسية» التفت إلى جيم لوب Jim Lobe الذي جرى تقديمه على أنه «مراقب مخضرم لظاهرة المحافظين الجدد وخصم قديم لمعاداة السامية».

تكرر اسم لوب بوصفه الخبير المقيم والدائم للعرض. إنه مراسل يعمل مع الإعلام «البديل» يتباهى بكونه خصماً عنيداً للمحافظين الجدد، دون أي شهادات موثقة خاصة على أنه «خصم لمعاداة السامية»، غير أن الإطراء المجاني كان متوفراً لغرض محدد – ألا وهو تطعيمه هو ومضيفيه بلقاح مضاد لتهمة التحريض على اليهود، لأن تلك كانت الأطروحة التالية في الحقيقة. بادر برادشو إلى إثارة السؤال الأب والأم، السؤال الحاسم،: «هل تعتقد أن الحديث عن سياسة بعض المحافظين الجدد الموالية لإسرائيل مشروع؟» رد لوب بادياً يهودياً كما اسمه قائلاً: «أظن أن من الصعب جداً فهمهم إذا لم تبدأ من تلك النقطة». وبعد بضع لحظات، أقدم برادشو، في حركة موازنة صحفية زائفة، على السماح لخبير الشرق الأوسط ميراف وورمسر Meyrav Wurmser بإنكار أي ولاء خاص لإسرائيل من جانب المحافظين الجدد. ووورمسر هذه مهاجرة إلى الولايات المتحدة من إسرائيل. وتتقن الدور شكلاً

ومضموناً. لعلها أفضل الخيارات الممكنة لإثبات التهمة التي جُلبت لدحضها – تهمة أن المحافظين الجدد إن هم إلا مافيا يهودية في الحقيقة، مافيا دائبة على جر كل من أمريكا وبريطانيا إلى حرب أخرى كرمى لعين إسرائيل.

❖ ❖ ❖

إذا كان هناك أي عنصر من عناصر معاداة السامية مفعلاً في بعض الهجمات على المحافظين الجدد – ومن الواضح أنه موجود – فإن تسميته ليست، للأسف، كافية. حتى الإشاعات الكاذبة المفضوحة ينبغي دحضها، مهما بدت العملية باعثة على الملل ومهينة. تعالوا، إذن، نسأل: هل صحيح أن أكثر المحافظين الجدد يهود؟ وهل هم دائبون حقاً على صياغة سياسة الولايات المتحدة من منطلق الإخلاص لمصالح «حزب الليكود» في إسرائيل؟

عدد كبير من المحافظين الجدد هم، في الحقيقة، يهود. أما سبب ذلك فينبغي ألا يكون واضحاً ذاتياً، رغم أن جزءاً من الإجابة هو، بالتأكيد، أن اليهود، كلما وحيثما توفرت لهم فرصة التمتع بالحرية، يبدون انجذاباً قوياً إلى السياسة وخصوصاً إلى لعبة الأفكار السياسية – انجذاباً شديد الوضوح عبر الطيف السياسي كله ولكن على ضفة اليسار خصوصاً. وبالفعل، فإن الحضور الكثيف غير المتناسب مع العدد في الحركات الشيوعية المبكرة بأوربا الشرقية والوسطى ما لبث أن أصبح مادة وظفها النازيون وغيرهم من أعضاء الحركات اليمينية المتطرفة التي صورت البلشفية على أنها قضية يهودية ليس لها أي هدف سوى خدمة المصالح اليهودية. وبالفعل فإن تروتسكي وزينوفييف والشيوعيين اليهود الآخرين لم يكونوا أكثر من لينين وستالين اهتماماً بالشعب اليهودي – أي لم يكونوا مهتمين على الإطلاق.

قد يكون ميل اليهود إلى الانتماء لليسار أحد الأسباب الكامنة وراء تباهي المحافظة الجديدة بوجود عدد كبير من اليهود بين أتباعها: إنها حركة تمتد جذورها الخاصة إلى اليسار. غير أن الانتماء نفسه يمكن أن نجده فعالاً في العديد من التلميحات الموجهة ضد المحافظين الجدد اليهود من قبل يساريين هم أنفسهم

يهود، أو يقر بنوع من الارتباط باليهود. لقد أقدم مايكل لند، مثلاً على تجاوز ما هو مألوف، ليؤكد «نسبه» اليهودي الخاص، وليست مجلة تيكون، بمعنى من المعاني المعترف بها ذاتياً، إلا مجلة يهودية. حتى هجوم البي. بي. سي. BBC على المحافظين الجدد اعتمد على إبراز ناقد يهودي في دور نجومي. وما أشد حماس هؤلاء اليهود في معارضتهم لأفكار المحافظين الجدد! إنهم مندفعون كثيراً إلى درجة لم يبدوا معها أي تردد إزاء السقوط في وحل العداء للسامية سعياً إلى تلويث تلك الأفكار. ثم يتساءل المرء: وماذا عن أهدافهم الغريبة البعيدة؟

قد يبدو الأمر غريباً في ضوء سيل الاتهامات الموجهة إليهم، غير أن اختصاصات محافظين جدد كبار نادراً ما كانت منطوية، في الحقيقة، على أي عمل متعلق بقضايا الشرق الأوسط. فمساهمات رتشارد بيرل الأبرز الكثيرة في سياسة الولايات المتحدة هي في دائرة استراتيجية الأسلحة النووية. أما إليوت آبرامز فقد اشتهر بوصفه الخبير الأبرز الذي وضع خطط الرئيس ريغان ذات العلاقة بـ أمريكا الوسطى. وحياة بول ولفوفيتز المهنية الطويلة في الإدارة تشتمل ليس فقط على موقع رفيع في وزارتي الخارجية والدفاع، بل وعلى منصب سفير بأندونيسيا مارس خلال شغله للمنصب ضغوطاً ذات شأن من أجل إشاعة الديمقراطية متفوقاً في هذا المجال على جميع أسلافه.

هؤلاء الثلاثة، جنباً إلى جنب مع باقي أعضاء حلقة المحافظين الجدد، كانوا وما زالوا متشددين في مواقفهم من الاتحاد السوفييتي، الصين، نيكاراغوا، وكوريا الشمالية. فهل ثمة أي غرابة في اتخاذهم موقفاً مشابهاً من عراق صدام حسين؟ أيٌّ منهم كان سيؤيد إعطاء فريق هانس بلكسHans Blix مزيداً من الوقت، أو ترك القضية كلها بأيدي الأمم المتحدة، لو لم تكن إسرائيل موجودة؟ هل يُطلب منا أن نصدق أن حملة المحافظين الجدد ضد الشيوعية وضد معاداة أمريكا التي دامت عقوداً من الزمن لم تكن إلا آلة روب غولدبيرغية بعيدة النظر رائعة التصميم مبرمجة لتفريخ بعض المنافع لإسرائيل في مكان ما على الطريق؟

زعمت البي. بي. سي. أنها اهتدت إلى دليل حسي، وضعت يدها على فوهة بندقية يتصاعد منها الدخان، دليل سارع آخرون أيضاً إلى الانقضاض عليه. قال برادشو: «في 1996، وضع فريق من المحافظين الجدد تقريراً رمى إلى تقديم النصح إلى رئيس الوزراء الإسرائيلي الجديد بني (كذا) نتنياهو. دعا التقرير إلى... إزاحة صدام حسين عن السلطة، تحقيقاً لهدف إسرائيلي استراتيجي مهم بحد ذاته. كان بيرل ودوغلاس فايث، يشغل الثاني الآن منصباً رفيعاً في وزارة دفاع بوش، بين أولئك الذين أدلوا بدلائهم، لدى كتابة هذه الوثيقة».

حتى وإن كانت البي. بي. سي. BBC قد وصفت الوثيقة وصفاً صحيحاً، فليس من شأن ذلك أن يعني ما أوحت البي. بي. سي. (وغيرها) بأنها فعلت. فالأمريكيون الذين ظهرت أسماؤهم على التقرير طالما كانوا قد سعوا إلى الإطاحة بصدام، تحقيقاً لهدف كان قد أصبح، في 1996، الهدف المعلن لإدارة كلنتون. إذن، من المقنع أكثر أن يقال إنهم كانوا، في أثناء إعداد تقرير لنتنياهو، يحاولون التأثير في السياسة الإسرائيلية لخدمة المصالح الأمريكية لا العكس. وبالفعل فإن أكثر المسؤولين الإسرائيليين كانوا في ذلك الوقت يرون إيران، راعية حزب الله وحماس، تهديداً أقوى لبلدهم من العراق، وكانوا سيفضلون (فيما بعد) وضعها (وضع إيران) في صدر سلم الأولويات في أي حملة على الإرهاب.

لزيادة الطين بلة، وقعت البي. بي. سي. في خطأ أساسي لدى التعريف بطبيعة الوثيقة. على النقيض من زعم برادشو، لم يكن «فريق المحافظين الجدد» قد كتبها. كانت، بالأحرى، من عمل مقرر إحدى اللجان، من عمل موظف عكف على تلخيص مداولات إحدى الندوات، وقد جرى التعريف به على أنه كذلك دونما لبس. والأسماء الملحقة بالتقرير وردت على أنها أسماء حاضرين لا أسماء مصادقين ومؤيدين، بَلْهَ مؤلفين.

❖ ❖ ❖

مهما يكن، مع أن من الصحيح أن عدداً كبيراً من المحافظين الجدد يهود، فإن من الصحيح أيضاً أن عدداً كبيراً منهم أيضاً ليسوا يهوداً. فجين كيركباتريك، جيمس آر. وولزي، مايكل نوفاك، لندا تشافيز، وليم جي. بنت، وجميعهم من ذوي الانتماء النقي إلى شجرة نسب المحافظين الجدد، في حين أن آخرين من غير اليهود ممن لهم حضور بارز في النقاشات الراهنة للسياسة الخارجية ويعرفون اليوم بأنهم محافظون جدد يشملون ليبي، بولتن، رئيس معهد المشروع الأمريكي كرستوفر دي موث Christopher De Muth، وغاري شميت من مشروع القرن الأمريكي الجديد. هؤلاء المحافظون الجدد الغرباء، الأعاجم، غير اليهود ليسوا أقل قوة في دعمهم لإسرائيل من نظرائهم اليهود/ مما يشي بموقف نابع لا من أي ولاء عرقي بل من بعض التحليلات المشتركة والمتقاطعة لحقوق ومظالم النزاع العربي – الإسرائيلي.

تماماً كما يتعذر إنكار أن عدداً غير قليل من المحافظين الجدد هم من اليهود، يتعذر إنكار حقيقة أن حرب أمريكا ضد الإرهاب ستصب في مصلحة إسرائيل بوصفها أكبر ضحايا هذا الإرهاب. إلا أن الهجمات التي شُنت على مركز التجارة العالمي والبنتاغون والتي أودت بحياة 3000 شخص ما لبثت أن رفعت موقع الولايات المتحدة على سلم ضحايا الإرهاب. تلك الضربة، ومعها المعرفة اليقينية بأن الإرهابيين سيحاولون تنفيذ مذابح أدهى وأشد هولاً، دفعتنا إلى الحرب في 2001 تماماً كما كانت بيرل هاربر قد فعلت في 1941.

تمخض ذلك القرار الأبكر من جانب الولايات المتحدة عن غمر ونستون تشرتشل بالفرح. لأن إنجلترا في ذلك الوقت كانت على خطوط الجبهة مع النازيين تماماً كما إسرائيل اليوم على خط الجبهة مع الإرهابيين. آنذاك طلع علينا أناس زعموا أننا كنا نخوض الحرب كرمى لعيون إنجلترا. بل وقد ظهر أناس قالوا إن ذهابنا إلى الحرب لم يكن إلا من أجل اليهود: إنها لمسألة أزلية دائمة. أولئك وهؤلاء كانوا، آنذاك كما هم الآن، مخطئين.

إذا كانت ثمة حادثة منفردة فاضحة لمدى حماقة التهمة القائلة بأن سياسات المحافظين الجدد إن هي إلا مرافعة دفاع يهودية خاصة، فإنها حرب تسعينيات القرن العشرين في البوسنة – الصراع نفسه الذي ساهم في بلورة مقاربة ما بعد الحرب الباردة للسياسة الخارجية التي يمكن وصفها بحق وعن صواب بمقاربة محافظة جديدة. فهذه الظاهرة، ظاهرة المحافظة الجديدة، لم تتشكل في البداية إلا كرد على التحدي السوفييتي، وقد كان من الطبيعي أن يقود انتهاء الحرب الباردة، بالضرورة، إلى استحضار السؤال الذي سارع نورمان بودهورتز إلى طرحه في 1996 قائلاً: هل بقي أي شيء بعد الآن يمكن أن يميز المحافظة الجديدة عن المحافظة البسيطة، دون مقدمات وذيول؟

ربما أتى أحد الردود على هذا السؤال في وقت مبكر يعود إلى سنة 1992، حين اندلعت الاشتباكات للمرة الأولى في البوسنة ورفض الرئيس آنذاك جورج بوش الأب الاهتمام بها بوصفها «مشكلة عابرة»، مع مسارعة وزير الخارجية جيمس بيكر إلى إعلان أن: «ليس لنا أي كلب في الشجار!». لم يكن هذان رجلين بلا قلب، بل نموذجين لنمط التفكير المحافظ التقليدي. تمثل جوهر القضية، حسب رؤيتهما له، بعدم انطواء البوسنة على أي أهمية ذات شأن فيما يخص المصالح الأمريكية التي لم تكن تعني، من وجهة النظر التقليدية، إلا المصادر الحيوية، أو الموقع الجغرافي، أو أمن الحلفاء.

عندئذ تآلفت حركة معارضة لقعود أمريكا وعزوفها عن الحركة. كان قادة الحركة، إضافة إلى حفنة من موظفي الخارجية الشباب الذين كانوا قد استقالوا من وظائفهم احتجاجاً ولم يكونوا يحملون أي عنوان إيديولوجي، جميعهم تقريباً، من صفوف المحافظين الجدد. كان كل من بيرل، ولفوفيتز، كيركباتريك، وماكس كامبلمان Max Campelman بين من احتلوا الصفوف الأمامية. وكنت أنا نفسي شديد الحماس للقضية إلى درجة أن البوسنة كانت النقطة الرئيسية بين جملة الأسباب التي ألزمتني بتأييد بل كلنتون ضد بوش سنة

1992، مُقْدماً على اختيار كنت سأبكي عليه ندماً على صفحات هذه المجلة حين تبين أن كلنتون لم يكن أكثر اهتماماً بالبوسنة من بوش الأب❖.

من الجدير تذكره أن القضية البوسنية كانت قضية الإسلاميين الأمميين، وأن البوسنيين أنفسهم كانوا جزءاً من الدولة الكرواتية الفاشية خلال الحرب العالمية الثانية، تلك الدولة التي عُرفت بوحشيتها مع اليهود. منطقياً، إذن، كان ينبغي لوجود أي «مصلحة يهودية» في الصراع أن يفضي إلى تأييد الموقف الذي اتخذه كل من بوش (الأب) وكلنتون. إلا أن المحافظين الجدد، يهوداً وغير يهود، على حد سواء، كانوا إزاء استمرار إراقة الدماء، أكثر من المحافظين استعداداً لتأييد التدخل. ورغم الاستثناء العرضي البارز – إذ أن المعلق الإعلامي المحافظ الجديد المعروف تشارلز كرواتهامر كان معارضاً للتدخل في حين كان عضو مجلس الشيوخ بوب دول مؤيداً – فإن الانقسام السائد حول البوسنة ألقى الضوء على وجود نوع من الحساسية، إن لم تكن الإيديولوجيا، المحافظة الجديدة المميزة، وهي حساسية بقيت مستمرة، أو ربما كانت قد عادت إلى الحياة من جديد، بعد انتهاء الحرب الباردة. تركز الأمر على مسألة طرق الاستفادة من القوة الأمريكية، ووجهة النظر تلك تبناها حتى بعض أولئك الذين لم يكونوا قد أتموا رحلتهم من مواقع الليبرالية مع المحافظين الجدد الأصليين.

❖ ❖ ❖

ما فحوى تلك الحساسية؟ قد تنطوي، جزئياً، على قدر أكبر من الاستعداد لتوظيف القوة والموارد الأمريكيتين حيث لا وجود إلا لهواجس إنسانية. غير أنها، بمعنى أوسع، مهتمة بالأمن القومي، متقاسمة مع النزعة المحافظة التقليدية الإيمان بأن القوة العسكرية لا يمكن الاستغناء عنها وبأن النزوع السلامي المستقيل خطأ. لعل محطة افتراقها عن المحافظة التقليدية هي المقاربة الأكثر حياداً وغيرية لقضية حماية ذلك الأمن القومي.

❖ أحد مؤيدي كلنتون، مجلة كومنتري، آب/ أغسطس 1993.

دعا المحافظون الجدد إلى التدخل في البوسنة انطلاقاً، في المقام الأول، من القناعة بأن من شأن إطلاق يد دكتاتور مثل سلوبودان ميلوسوفيتش الصربي وتركه يمارس العدوان، التطهير العرقي والقتل الجماعي في أوربا، مهما كانت منطقة البلقان بعيدة جغرافياً واستراتيجياً، أن يغري أشراراً آخرين بالإقدام على الشيء نفسه في أماكن أخرى، وأن يدفع حَمَلَة رايات التعصب القومي إلى استخدام مثل هذه الوسائل للوصول إلى السلطة. رأى المحافظون الجدد أن من شأن قعود أمريكا أن يجعل العالم مكاناً أخطر، وأن من شأن هذا الخطر أن يأخذ أشكالاً قادرة، ربما، على طرق أبوابنا بالذات. ذلك هو ما حدث على امتداد القرن العشرين. وذلك هو ما كان سيحصل مرة أخرى يوم الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر العام الأول من القرن الحادي والعشرين، أكثر الأزمات نضجاً واكتمالاً.

إضافة إلى مقاربتهم الأكثر غيرية للأمن، أبدى المحافظون الجدد قدراً أكبر من النزوع إلى اختيار تكتيكات غير تقليدية – استخدام الضربات الجوية ضد الصرب – تسليح البوسنيين، أو المؤتمر الوطني العراقي، فيما بعد. في حين أن المحافظين ذوي التوجه التقليدي ظلوا، على النقيض من ذلك، أكثر ميلاً إلى تفضيل استخدام القوة الطاغية أو الامتناع عن التدخل بالمطلق، وإلى الاهتمام أكثر باستراتيجيات الخروج (exit strategies). وثمة، بعد، سمة مميزة أخرى متمثلة بتفوق المحافظين الجدد في المراهنة على الجوانب السياسية والإيديولوجية للصراع.

قد تعكس سمة مميزة أخيرة قدراً بسيطاً من العلاقة بين المحافظين الجدد والنزعة الليبرالية. إنه الحماس للديمقراطية. يبقى المحافظون التقليديون أكثر استعداداً لإظهار نوع من اللامبالاة إزاء هذا النمط من الحكم، وهي لامبالاة عبّر عنها قبل قرون مؤسسو أمريكا. لا يميل المحافظون، على ما يبدو، إلى اتخاذ مثل هذا الموقف.

إذا تذكرنا كل هذا، يصبح التعرف على النماذج الحقيقية من المحافظين الجدد في ميدان سياسة القوة أكثر يسراً: هاكم هنري «سكوب» جاكسون، رونالد ريغان، وونستون تشيرتشل. لقد كان هؤلاء متشددين بعيدين عن أن يكونوا

«محافظين» من حيث الروح أو النسب السياسي. فجاكسون كان ديمقراطياً، في حين لم ينتقل ريغان إلى صفوف الجمهوريين إلا في مرحلة متأخرة من حياته، مثله مثل تشيرتشل الذي رحل في وقت متأخر من مواقع الليبراليين إلى معسكر المحافظين. الثلاثة، جميعاً، كانوا ديمقراطيين حتى العظم، ومؤمنين، بقدر لا يقل عن ذلك، بضرورة المحافظة على قوة وجبروت الدول الديمقراطية. الثلاثة، جميعاً، كانوا مؤمنين بضرورة مجابهة أعداء الديمقراطية في وقت مبكر وبعيداً عن شواطئ الوطن. والثلاثة، جميعاً، كانوا نماذج للحرب الإيديولوجية.

كذلك كان كل منهم تكتيكياً بارعاً. نجحت «تعديلات» جاكسون المعروفة باسمه، تلك التعديلات التي أبقت قدمي الاتحاد السوفييتي على نار حقوق الهجرة وحالت دون إبرام اتفاقية نووية ثانية غير متكافئة، في وضع حد لسياسة الاسترضاء الأمريكية. أما خطاب ريغان الاستفزازي، مضافاً إلى تسليحه للعصابات المعادية للشيوعية، فقد مهد الطريق لانتصار أمريكا في الحرب الباردة. وقد كانت أفكار تشيرتشل الإبداعية المجددة، تلك الأفكار التي كانت قد أكسبته، صواباً أو خطأ، سمعة سيئة في الحرب العالمية الأولى، أفكاراً ورؤى أساسية وجوهرية لنجاة أمته ودولته في الثانية (الحرب العالمية الثانية). هل بمقدور هذا العنصر في نزعة المحافظة الجديدة أن يفسر سبب إقبال جميع المحافظين الجدد، من غير اليهود جنباً إلى جنب مع اليهود، على احتضان قضية إسرائيل التي هي دولة ديمقراطية، مجددة، قوية عسكرياً؟

غير أن هذا يعيدنا أخيراً إلى مسألة تأثير المحافظين الجدد الحالي المزعوم. كيف تمكنت أفكارهم من تحقيق مثل هذا الرواج؟ هل نجحوا في «اختطاف» سياسة بوش الخارجية من تحت أنفه هو وأنوف رتشارد تشيني، كولن باول، دونالد رمسفلد، وكوندوليزا رايس – وجميعهم أعضاء في الفريق نفسه الذي تحلى، إذا صدقنا الرواية الليبرالية الشائعة، بقدر كبير من الذكاء والمكر الشيطانيين إلى درجة مكنته من سرقة الرئاسة نفسها في انتخابات الـ2000؟

يمكن العثور على الإجابة لا في نظريات المؤامرة، بل في الغضب من الإرهاب الواقع يوم الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر 2001. مع أنها كانت نقطة انعطاف في تاريخ أمريكا، فإن هذه الحادثة لم تكن جديدة من حيث النوع بل من حيث المستوى أو المدى فقط. على امتداد ما يقرب من ثلاثين سنة ظل إرهابيون شرق أوسطيون دائبين على اغتيال أمريكيين في السفارات، الثكنات، على الطائرات، وعلى ظهور البواخر – بل وفي مركز التجارة العالمي بالذات، مرة من قبل. باستثناء عدد كبير من الملاحقات والمحاكمات الجنائية وقذف عدد قليل من القنابل الرمزية بأكثريتها، ظل رد الولايات المتحدة عديم الفعالية. حتى في ظل حكم الرئيس ريغان هرب الأمريكيون غداة قصف ثكنات المارينز في بيروت، ذلك الهجوم المنفرد الأكبر الذي تعرضنا له حتى ذلك التاريخ.

قيل لنا إن الإرهاب أسلوب مقبول في ممارسة السياسة في الشرق الأوسط. أكثر من حفنة من حكومات المنطقة ظلت دائبة، صراحة، على دعم الإرهاب. ومنظمة التحرير الفلسطينية، ذلك الفصيل الغارق في الإرهاب، كان الطفل المدلل للقضية العربية. وكان من شأن أي رد قوي على هذا البلاء ألا يفيد إلا في زيادة غضب أهل المنطقة منا، مع تفريخ المزيد والمزيد من الإرهابيين.

❖ ❖ ❖

في الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر تعلَّمْنا، بأكثر الطرق إثارة للرعب، أن ليس من شأن ترددنا وعزوفنا الخجول أن يفضيا إلى خطب ود الإرهابيين. العكس تماماً هو الصحيح. لقد رأينا – وهم أنفسهم أبلغونا صراحة – أنهم عازمون على مواصلة قتلنا بأعداد متزايدة باطراد طالما ظلوا قادرين على ذلك. كان لابد من إحداث انقلاب في الخط المعتمد، وبات واضحاً أن المحافظين الجدد الذين كانوا دائبين منذ سنوات على التحذير من مغبة استرضاء الإرهابيين، كانوا على صواب – تماماً كما تبين، وبقدر أكبر من الجلال، أن تشيرتشل على صواب، جراء أعمال السطو والسلب التي أقدم عليها هتلر بعد ميونيخ.

لم يكتف المحافظون الجدد بامتلاك تحليل عميق لما تعرضت له السياسة الأمريكية من خطل وأخطاء، بل وبدوا أيضاً مجهزين باقتراحات محددة حول ما ينبغي فعله الآن: شن الحرب على الجماعات الإرهابية والتماس إنهاء أو تغيير الحكومات الداعمة لها، خصوصاً تلك المتوفرة على وسائل تزويد الإرهابيين بما هو ضروري لقتل المزيد والمزيد من الأمريكيين بمعدلات أعلى مما حصل حتى في الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر. وكذلك فإن المحافظين الجدد طرحوا استراتيجية طويلة الأمد لتقليص فرص بقاء الشرق الأوسط تربة خصبة لاستنبات الإرهاب: لغرس أشتال الديمقراطية في المنطقة، للمساهمة في إنضاج مقاربة أقل اتساماً بالعنف للسياسة.

ما من محافظ جديد تمت ترقيته وظيفياً بعد الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر، كما رُفّع تشيرتشل إلى منصب رئيس وزراء بعد انهيار اتفاقية ميونيخ، إلا أن خططاً وسياسات عائدة للمحافظين الجدد سارعت إدارة بوش إلى تبنيها. هل حصل هذا لأن بوش اطلع عليها من أمثال بيرل وولفو فيتز؟ أم أن الرئيس، هو ومستشاروه – ليس أي منهم معروف بانتمائه إلى صفوف المحافظين الجدد – توصلوا إلى استنتاجات مشابهة خاصة بهم؟ قد يتعين علينا انتظار مذكرات الرئس لنعرف الإجابة على ذلك السؤال الدقيق، غير أن لدى كل أمريكي ما يدعوه إلى أن يكون شاعراً بالامتنان إزاء النتيجة.

إذا تعرضت جملة هذه السياسات والخطط للإخفاق، مهما كان السبب – بما في ذلك تكرر وقوع الأمة في حالة من الجُبْن – فإن أفكار المحافظين الجدد سوف تتعرض، دون أدنى شك، للافتضاح. غير أن ذلك يبقى قليل الأهمية مقارنة بما سنكون قد خسرناه. إن مثل هذا الإخفاق سيعني إما بقاءنا تحت رحمة إرهاب أكثر ضراوة وإجراماً أو مبادرتنا إلى السعي لاجتراح أساليب بديلة للتعامل مع مثل هذا الإرهاب – من شأن مثل هذه الأساليب أن تنطوي على مسار عملي أكثر إيلاماً بما لا يقاس وأشد إثارة للرعب بكثير من المسار المقض للمضاجع، برأي الجميع، الذي ما زال في انتظارنا.

أما إذا تكللت الخطط والسياسات المحافظة الجديدة بالنجاح فإن العالم سيكون قد تم إنقاذه من كارثة مرعبة، وسيكون ثمة ما يكفي من الفضل والصدقية للاعتزاز والفخر – بعضهما عائد، بالتأكيد، حتى لأولئك الذين أُغرقوا، مؤخراً، في طوفان من حملات الأبلسة من المحافظين الجدد.

obeikandl.com